

فلسفة التغيير الاجتماعي والثقافي في منظور المفكرين المسلمين

Philosophy of social and cultural change in the perspective of Muslim thinkers.

رياض شاوي*

جامعة العربي التبسي تبسة

Chaoui riad

Larbi Tebessi University-Tebessa

riad.chaoui@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2021/01/21 تاريخ القبول: 2021/04/23 تاريخ النشر: 2022/09/29

- الملخص: تناولنا في مقالنا هذا أحد أكبر المعضلات المثيرة للقلق في حياة المجتمعات البشرية جميعها، والذي يتعلق بسعيها للانتقال من وضع حضاري أدنى إلى آخر أرقى، حيث يعد التفكير في تغيير الأوضاع الاجتماعية والثقافية نحو الأحسن الشغل الشاغل لجميع المجموعات البشرية بمختلف مستوياتها الحضارية؛ وهذا ضمن المسعى الدائم للبحث عن السعادة المنشودة، ولذلك كرس جل المفكرين وقتهم لمحاولة فهم هذا الانشغال والإجابة عن كل ما يحيط به من تساؤلات. وعلى هذا الأساس كانت انطلاقتي العلمية لمحاولة سبر أغوار هذا الموضوع عند بعض المفكرين المسلمين في مراحل تاريخية متباعدة، وكان اختيارنا لكل من عبد الرحمان بن خلدون ومالك بن نبي من أجل معرفة إن كان لعامل الزمان تأثيرا على التصور العام نحو هذا الموضوع. وقد تبين لنا بعد الاطلاع على ما كتبه في هذا الباب تشابه وجهتي نظرهما إلى هذا الموضوع؛ خاصة في إشارتهما إلى تعدد العوامل المتحكمة في التغيير الاجتماعي والثقافي، وكذا تركيزهما على المساهمة الحاسمة للبعد الأخلاقي في إحداث النقلة النوعية من حالة التخلف إلى حالة التطور والنمو.

كما يمكن القول إن أعمال مالك بن نبي قد استندت في بعض جوانبها المعرفية على أطروحات ابن خلدون؛ ولكن بتوظيف منظومة مفاهيمية حديثة، كاستخدام مفهوم النخلة، ومفهوم شبكة العلاقات الاجتماعية، ومفهوم الدورة الحضارية وغيرها، وهذا ما أعطى لمساهمات بن نبي خاصية الواقعية وجعلها أكثر تماشيا مع التحولات المجتمعية في المجتمعات المعاصرة. - الكلمات المفتاحية: التغيير الاجتماعي، التغيير الثقافي، التقدم الاجتماعي، المفكرون المسلمون. المشروع الحضاري.

Abstract: We have addressed in this research one of the most interests of concern in all human societies' life, it's about seeking to move from a lower civilized status to another higher, where thinking about changing social conditions for the better is the main concern for all human groups in their various levels of civilization and that's

*- المؤلف المرسل:

within a permanent endeavor to seek out the desired happiness. Therefore, most of the thinkers have devoted their time trying to understand this preoccupation and answering all questions surrounding it. On such a basis was my springboard to try to probe the heart of this topic, with some Muslim Thinkers, and our choice of each of Ibn Khaldun and Bennabi was in order to find out whether the factor of time had an effect on the general perception of this subject in both. We have come to realize the similarity of their points of view on this topic; especially in their reference to the multiplicity of factors controlling social and cultural change, as well as their focus on the decisive contribution of the moral dimension to make a qualitative leap from a state of backwardness to a state of development and growth.

It could also be argued that Bennabi's works were based on some of their epistemological aspects on Ibn Khaldoun's thesis; but by using a modern conceptual system, this gave Bennabi's contributions the particularity of realism and made it more in line with the societal transformations in contemporary societies.

Keywords: Islamic thinkers- Cultural change- Social change- Social progress. The civilizational project.

1- مقدمة :

احتل موضوع التغيير الاجتماعي حيزاً بارزاً من الاهتمامات الفكرية والتأملات الفلسفية عبر مر التاريخ؛ خاصة في مراحل ما بعد النهضة الأوروبية، حيث عانت المجتمعات القروسطية من براثن التخلف والانحطاط منذ أيام الدولة الرومانية، وهو ما انعكس في الإنتاج الفكري لعصر فلسفة الأنوار وما بعدها الذي تأسس في مجمله على فكرة التقدم.

وأما في المجتمعات المسلمة فيبدأ التأريخ -غالباً- لعصور التراجع الحضاري مع سقوط غرناطة نهاية القرن الخامس عشر ميلادي؛ بيد أن مؤشرات التراجع والانحطاط قد بدأت بالظهور قبل ذلك بعقود، حيث كتب العلامة ابن خلدون مقدمته لوصف ذلك الوضع المتردي وتبيان عوامله وعوارضه بصورة قل مثيلها في ذلك الوقت، مما جعل تأثير ما كتب يصل إلى وقتنا الحاضر وتجلى عند الكثير من المفكرين، من بينهم مالك بن نبي، ونظراً لوجود تقارب واضح بينهما في الكثير من القضايا ارتأينا الجمع بينهما في مقال واحد، يتناول موضوعاً محورياً في التجمع الإنساني، ألا وهو موضوع التغيير الاجتماعي والثقافي.

ولأن المفكران ينتميان إلى واقع اجتماعي وثقافي واحد فقد تشابهت بينهما الكثير من الآراء والأقوال، حيث عاشا في ظروف متشابهة إلى حد ما، رغم فارق الحقبة الزمنية بينهما، فحالة التقهقر والانحطاط هي الصورة المميزة للمجتمعات الإسلامية في الفترة التي عاش فيها كل مفكر؛ لذلك يرى بعض المهتمين أن مساهمات مالك بن نبي جاءت تكملَةً وتحييناً لإسهامات ابن خلدون؛ فلماً بين الأخير أن المغلوب مولعٌ دائماً بتقليد الغالب، أسس مالك بن نبي نظرية القابلية للاستعمار؛ وفي كلتا الأطروحتين يتضح القول بتأثير العوامل الخارجية على ظاهرة التغير الثقافي والاجتماعي لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، هذا التأثير الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعوامل الداخلية العديدة لتلك المجتمعات، بيد أن المتفحص لأفكارهما يجدهما قد أعطيا الأهمية القصوى لتأثير العوامل الثقافية والاجتماعية الداخلية لتلك المجتمعات.

ويأتي بحثنا هذا كمحاولة لسبر أغوار مشروع التغيير الثقافي والاجتماعي عند كل من المفكرين، باحثين عن مدى امتلاكه لصفتي الكلية والتكاملية، ومتبعين لنقاط الاختلاف والتشابه في هذين التصورين، وذلك بالتطرق إلى مجموعة من القضايا منها: ماهية التغير الاجتماعي والثقافي، مرجعيته، أبعاده، عوامله، شروط إحداثه، معوقات انجازه.

1- سوسيولوجيا التغير الاجتماعي والثقافي:

أصبح مفهوم التغير الاجتماعي والثقافي من أكثر المفاهيم تداولاً عند مختلف الفئات الاجتماعية، من سياسيين وعلماء وفلاسفة، حتى تأسست حوله الكثير من الفلسفات والنظريات العلمية، وفي كثيرًا من الأحيان يُساق في ارتباط وثيق بمفاهيم أخرى متقاربة الوظيفة، مثل مفهوم التطور، الحداثة والتحديث، ومفهوم التغير الحضاري، وغيرها من المفاهيم؛ لذلك سعت منظومة العلوم الاجتماعية والإنسانية لتناول هذه المفاهيم بصورة أكثر موضوعية وحيادية، ولم يكن هذا المسعى يسيراً ولا سريعاً، إنما احتاج إلى مجهودات جبارة قصد الوصول إلى حقيقته الاجتماعية، لذلك سجل العديد من النقاد، الكثير من الثغرات والاختلالات الناتجة عن مجموعة من العوامل والأسباب-منها الذاتية ومنها الموضوعية- التي صاحبت ذلك المسار الطويل.

ومن بين الاتجاهات الفكرية التي تناولت موضوع التغير الاجتماعي وجعلته محوراً أساسياً لتفسير الماضي والمستقبل الاتجاه التطوري؛ الذي اعتقد أنصاره أن تاريخ الإنسانية يمكن رسمه وفق مسار خطي تقدمي، ينتقل خلاله التغير من مستويات حضارية دنيا إلى مستويات حضارية عليا، واضعين بذلك التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي وحتى السياسي للمجتمعات الإنسانية على خط سير حتمي، كانت نهايته حالة المجتمعات الأوروبية خلال القرن التاسع عشر

عند التطويرين الأوائل، وتجسده الليبيرالية الديمقراطية حسب فرانسيس فوكوياما؛ التي اعتبرها نهاية التاريخ أو آخر وأرقى صورة للتغير الاجتماعي والثقافي للإنسانية.

وقد قسم أصحاب النظرية التطورية - وأنصار نظريات التحديث من بعدهم- المجتمعات الإنسانية إلى قسمين: مجتمعات متحضرة ومتقدمة تمثلها مجتمعات أوروبا بالدرجة الأولى، ومجتمعات بدائية متخلفة تمثلها دول العالم الثالث أو ما أصبح يسمى بدول الجنوب؛ التي منها الدول الإسلامية والعربية. وقد تشكلت هذه النظرة منذ قرون عديدة، مع اللحظات الأولى لاحتكاك أوروبا مع المجتمعات الأخرى، بعد كثرة الرحلات والاستكشافات الجغرافية، ثم توسع حركة المد الاستعماري في فترة لاحقة (تولرا و فارنيه، 2004، ص. 11)، وكان ذلك التصور مطبوعاً بنظرة استعلائية وعنصرية؛ ضمن ما يعرف بالانثوية المركزية، أي التمركز حول الانثوية الأوروبية معتقدين فيها الكمال وفي غيرها النقصان.

غير أن الحديث بعد ذلك عن قضايا التقدم والتغير الاجتماعي والثقافي قد اخذ بُعداً أكثر علمية، كان ذلك فقط في اللحظة التي تم فيها الاعتراف بقضية "النسبية" الثقافية، أي وجود اختلاف ثقافي لا تفاضل ثقافي، وأصبح الحديث عن الحضارات بالمجموع وليس بالمفرد، بمعنى تجاوز فكرة وجود حضارة إنسانية واحدة إلى فكرة أن لكل مجتمع من المجتمعات حضارته الخاصة؛ هنا فُسح المجال أمام المفكرين من مختلف الثقافات لدراسة أحوالهم الحضارية محاولين تفسير كل عراقيل ومعوقات عملية التغير الاجتماعي والثقافي لمجتمعاتهم وللمجتمعات الأخرى.

وقد اختلفت وجهات النظر حول أسباب التمايز والاختلاف الحضاري بين المجتمعات الإنسانية، فإذا كانت المجموعات الإنسانية تشترك في امتلاك المخزون الوراثي نفسه فإنها تتمايز باختياراتها الثقافية، وتبدع كل واحدة منها حلولاً مبتكرة لما يطرح عليها من مشاكل (كوش، 2007، ص. 10)، ثم إذا كان الجميع مقتنعاً الآن بان وجود تلك الاختلافات بين الشعوب من حيث درجات التقدم والتطور لا ترجع إلى أسباب طبيعية بيولوجية، فما هي أسباب هذا الاختلاف؟ والأسئلة الأكثر أهمية بالنسبة للمسلمين في هذه المرحلة تحديداً هي: ما هي أسباب التدهور المسجل على جميع المستويات الاجتماعية والثقافية؟، وما هي العوامل المساعدة في إحداث تغيير اجتماعي ثقافي موجه نحو تحقيق أهداف المجتمع وأفراده؟، وهل يوجد من المفكرين من قدم نموذجاً للخروج من هذه الأوضاع؟

إن البحث في أسباب وعوامل التغير الاجتماعي والثقافي لم يكن اهتمام الغرب فحسب، بل إن هذا الإشكال قد طُرح بقوة ومنذ قرون عديدة عند بعض المفكرين الإسلاميين، خاصة مع

ابن خلدون، والذي حاول تقديم وصف موضوعي لحال المجتمعات العربية في عصره، مبينا العوامل المتحركة في هذه الحالة الحضارية؛ ولقد جاء مالك بن نبي بعد ذلك بقرون، مستفيدا من التراكم المعرفي الناتج عن التقدم الكبير في منظومة المعارف الاجتماعية والإنسانية لإعادة تفسير الأوضاع الثقافية والاجتماعية والفكرية للمجتمعات نفسها، ونحن الآن بصدد القيام بقراءة نقدية مختصرة لأهم أفكار المفكران في قضايا التغيير الاجتماعي والثقافي، قصد معرفة نقاط التقائهما ونقاط اختلافهما. وان كانت هناك إمكانية للمقاربة بين المشروعين، لجعلهما مشروعاً واحداً متكاملًا، يمكن الاستفادة منه واقعيًا.

2- الملامح العلمية في شخصية ابن خلدون

قدم ابن خلدون من خلال مؤلفه الشهير "المقدمة" مشروعاً واضح المعالم لعلم جديد، مستحدث الصنعة حسب تعبيره، لم يسبقه إليه أحد قبل ذلك، غير بعض الأفكار المتعلقة بعوارض الحياة الاجتماعية التي أوردها الفلاسفة المسلمون واليونان قبله، وإننا لنجد الرجل قد نادى إلى إحداث قطيعة معرفية ومنهجية مع التراث المعرفي القديم، وتنقيته من كل ترسبات المعارف غير العلمية، حيث أشار بكل وضوح إلى المغالطات الكبيرة التي وقع فيها المؤرخون السابقون، ودعا إلى تحطيم "الأصنام" التي تعيق نمو المعرفة التاريخية الموضوعية، كولع النفس بالمبالغة، والتقليد، والمجاملة، فكان ابن خلدون بذلك ناقداً من الطراز الأول، سواء في المجال المعرفي برفضه لأساليب المعرفة التقليدية، أو المجال الاجتماعي حيث كان رافضاً للظروف الحياتية التي تعيشها المجتمعات الإسلامية في تلك الفترة، هذا من جهة ومن جهة ثانية دعا إلى ممارسة النقد بيقظة وبتبصر، فقال: "فالذي لا يدرك كيف تنشأ الدول، وكيف تهدم، وما هي خصائص البدو والحضر وأنواع المكاسب وأنواع العلوم، لا يستطيع نقد الخبر نقداً صحيحاً" (ابن خلدون، 2001، ص. 331)، ويضيف في موضع آخر مادحاً ذهنه الاستكشافية قائلاً: "ولما طالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم، نهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم" (ابن خلدون)؛ وكأنه يدعو إلى إتباع قواعد ومنهجية العصر الحديث، حيث يظهر أهمية المقارنة الزمانية بين المراحل المتعاقبة للأحداث، وبين في بداية قوله أهمية القراءات الأولية في البحوث والدراسات، وان هذين الأمران يعتبران من خصائص المعرفة العلمية الحديثة.

ومما ساعد ابن خلدون على امتلاك هذه الروح العلمية البارزة، ذات البعدين النظري والعملية، سعة اطلاعه في مختلف المجالات المعرفية من جهة، وتجاربه المعاشة من جهة ثانية، حيث تعرف إلى الكثير من مبادئ العلوم وثقافات الشعوب، وتولى العديد من المناصب السياسية والقضائية في عديد الدول التي أستقر بها حيناً من الدهر.

3- الأبعاد النقدية في شخصية بن نبي:

عاش ابن نبي جل حياته في ظل الاستعمار الأجنبي للبلاد الإسلامية وخاصة بلاده الجزائر، ورغم ذلك فإنه لم يُرجع حالة التخلف والتقهر إلى الاستعمار فقط، كما فعل الكثير من معاصريه، بل ارجع مجمل أسباب تلك الحالة الحضارية إلى أسباب داخلية ذاتية، تتعلق بشخصية الفرد المسلم التي ساهمت في تشكل تلك الوضعية كما سنبين لاحقا، وقد دعا هو الآخر إلى إعادة تأسيس علم الاجتماع، أو بالأحرى إقامة علم اجتماع خاص بالمجتمعات الإسلامية، يكون ذو بعدين؛ نظري وتطبيقي، يتكيفان مع الواقع الثقافي الخاص، حتى تتمكن من تشخيص الحالة الحضارية لهذه المجتمعات، وتقديم العلاج بما يتناسب وخصوصياتها الثقافية ومبادئها الأخلاقية؛ هذا العلم الذي يجب أن يتخذ لنفسه أدوات مفاهيمية تتلاءم مع المنظومة القيمية للمجتمعات الإسلامية.

وكان لاحتكاك بن نبي العميق بالحضارة الغربية، ورؤيتها من الداخل فرصة لتفادي كل حالات الاستلاب والانهار بتلك الحضارة، فجعلها نموذجا يمكن الأخذ منه، ولكن بحذر، من خلال ممارسة فعل الانتقاء الثقافي، الذي يسمح بأخذ الإيجابيات وترك السلبيات.

وعليه فقد امتاز كلا المفكرين بروح النقد والإبداع، وتجنبنا كل تقليد أعمى، وكل إتباع لا يعتمد على روح نقدية ومنهجية واضحة ودقيقة، تساعد في تحديد المعالم الكبرى للمشروع الحضاري، الذي هو فعل تاريخي شديد الخطورة، يحتاج إلى جهود كثيرة.

4- عوامل التغيير الاجتماعي والثقافي الانتكاسي للمجتمعات الإسلامية:

حتى نكون منصفين بين الرجلين، يجب الإشارة إلى أن فارق الزمان بينهما قد خلق التمايز الذي سنشير إليه لاحقا حول طريقة وصفهما للحالة الحضارية للمجتمعات الإسلامية؛ وحيث أن مالك بن نبي نفسه أشاد بالمساهمة الجبارة لابن خلدون وجدارته على قراءة ذلك الوضع مع الإشارة إلى جوانب القصور فيها، حيث عاش هذا الأخير اللحظة الأولى لبداية التقهر والانحطاط، في حين عايش ابن نبي مرحلة الوجود الأجنبي، وما حملته من محاولات القضاء على الثقافة الأصلية لمجتمعه، ثم مرحلة الاستقلال وما حملته من طموحات لإعادة بعث ثقافة كانت تحت الهيمنة، وأراد أن تكون له مساهمة فعالة لإحداث التغيير المنشود.

بداية، وكما هو معروف فقد اتخذ ابن خلدون من مفهوم "العصبية" المفتاح الأساسي لتفسير جميع المشكلات التي يطرحها سير أحداث التاريخ الإسلامي إلى عهده (عابد الجابري، 1994، ص. 12)، حيث يمكن اعتبار العصبية عامل التغيير الاجتماعي الرئيس في المنظومة الخلدونية، وان كان ابن خلدون قد اهتم بالجانب السياسي بالدرجة الأولى؛ ويرجع هذا باعتقادنا

إلى الفترة التي عاش فيها ابن خلدون، والتي كانت مرحلة صراعات سياسية وعسكرية بين دويلات عديدة وملوك متنافسين، في مقابل العوامل الاجتماعية والثقافية التي لم يهملها إطلاقاً، بل كانت حاضرة في الكثير من مواقع المقدمة، كما اهتم كذلك بالعوامل الجغرافية وتأثيرها على طبائع العمران وسلوكات الناس، وهو في ذلك كان أسبق من مفكري عصر النهضة الأوروبية كشارل مونتسكيو الذي اهتم بتأثيرات الجغرافيا على التجمع الإنساني.

وتقوم نظرية ابن خلدون على وجود ما يسمى بالدورة الحضارية، فالتاريخ لا يسير في خط مستقيم ينطلق من مرحلة دنيا متخلفة إلى أخرى أرقى كما شرحنا في العنصر الأول، بل أن نظريته تفسر التاريخ البشري على أنه محطات للصعود والنزول، تتحكم فيه عوامل متعددة، وذلك لأنه يستحضر في تحليله الآية: 140 من سورة آل عمران "وتلك الأيام نداولها بين الناس"، وعليه فقد اعتقد وجود قوانين عامة تتحكم في هذه الدورة الحضارية، وتجعلها متكررة ودورية، مستشهداً على ذلك بتحليله لظاهرة الانتقال من العمران البدوي إلى العمران الحضري.

ومن بين أسباب التغيير الحضاري عند ابن خلدون ما يتعلق بالوضع النفسي للمجتمع، كمظاهر النذل والانقياد، التي تؤثر في الأخلاق والخصال الحميدة، فهو يرى أن "الأفعال لا بد من عود أثارها على النفس، فأفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء وأفعال الشر والفسق تعود بضر ذلك، فتمتكن وترسخ إن سبقت وتكررت (ابن خلدون، ص. 403). إذن فقد كان خلق المذلة والعجز والانقياد من الأسباب الأولى التي تجعل دولا تزول ومجتمعات تنحل، ولن تقوم الدولة بعد ذلك إلا بعكس تلك الأخلاق، وكذا حال الحضارة؛ وقد كتب رواد مدرسة فرانكفورت كلاماً قريباً من هذا التحليل، حين حللوا ما يسمى بالشخصية التسلطية.

وإلى جانب البعد الأخلاقي يشير ابن خلدون إلى قضايا أخرى تؤثر في مسيرة التغيير الثقافي الاجتماعي للمجتمع، كقضية الظلم؛ حيث يرى فيه ابن خلدون مؤشراً على خراب العمران، فيقول: "إن الظلم مُخرب للعمران، وإن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاص" (ابن خلدون، ص. 291)؛ وقد نظر إلى الظلم في منظوره العام بأبعاده الاجتماعية المتعددة، حين يصبح ممارسة اجتماعية منتشرة، وفي معناه الخاص حين يتفشى في النخب الحاكمة وأجهزة الدولة، فظهور "الحجابه" بالنسبة لابن خلدون مؤشر على وجود الظلم داخل الدولة، وإذا ما سجل فلنتوقع بداية العد التنازلي لضعف الدولة ثم زوالها.

وقد تطرق ابن خلدون كذلك إلى بعض العوامل ذات الأبعاد الاقتصادية حين تشخيصه لحالة المجتمعات في تلك الفترة، ورأى فيها سبباً لزوال العمران، منها الترف المادي والإفراط في الاستهلاك، وهو يعطي تفسيراً لذلك بقوله: "... وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل

الملك قبلها، كثر رياضها ونعمتها، فتكثر عوائدهم، ويتجاوزون ضروريات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى إتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم" (ابن خلدون، صفحة 541)، وهذا يمكن التعبير عنه حالياً تحت موضوع ثقافة الاستهلاك.

وأما حال الأمم بعد تفقرها فأكثر ما ينتشر فيها من الظواهر السلبية، التقليد الحاصل بعد الهزائم أمام الدول الأخرى، ورغم ورود مسألة التقليد في فصل قصير من مقدمة ابن خلدون، إلا أنها كادت أن تكون لوحدها قانوناً اجتماعياً حتمياً، يفسر الكثير من الظواهر والأمراض الاجتماعية، حيث قال: "فالمغلوب مولع أبداً بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده" (ابن خلدون، ص.159)، ويفسر لنا هذا الموقف النفسي والاجتماعي الناتج عن حالة سياسية بالدرجة الأولى، بأن النفس تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، وترى فيه غلباً طبيعياً، متعلق بعوامل خارجة عن إرادات الأفراد والجماعات، وهذه مغالطة كبيرة حسب ابن خلدون، لأن الأصل في ذلك يعود لما أنتحله الغالب من العوائد والمذاهب، يعني مما تبناه من أفكار وقناعات، وبما قدمه من نشاطات وأعمال وسلوكيات جعلته يملك قوة البناء والتعمير، وقوة الغلبة والتمكين.

وإننا لنجد فكرة التقليد أكثر نُضجًا وتطورًا مع المفكر مالك ابن نبي، الذي حاول تشخيص الحالة المرضية بكل تفاصيلها وعلى جميع المستويات، سواء عند النخبة، أو الفئات الاجتماعية الدنيا؛ ومعروف عند مالك بن نبي أن فترة التدهور الحضاري إنما تنطلق منذ زوال دولة الموحدين، رغم أن إرهاباتها قد بدأت قبل ذلك، وقد عبر عن حالة الفكر في عصر ما بعد التحضر بقوله: "عندما يكون الفكر الإسلامي في حالة أقول فإنه يغرق في التصوف والمهم والمشوش، وفي عدم الدقة وفي النزعة إلى التقليد الأعمى وفي الإعجاب بأشياء الغرب" (بن نبي، 2005، ص.15)، وهذا واقع حال المجتمعات الإسلامية اليوم كذلك، حيث أصبحت مجتمعات استهلاكية من الدرجة الأولى.

هنا نلاحظ التقارب بين المفكرين في موضوع التقليد، والذي يعني من جهة التشبث بخرافات الماضي وعاداته البالية، ومن جهة أخرى استعارة أفكار وأدوات مجتمعات أخرى يعتقد فيها التطور والتقدم، وكلا وجهي التقليد (تقليد زمني وتقليد مكاني) كان حاضرًا في تحليل المفكرين، فقد أورد ابن خلدون الوجه الأول في بداية المقدمة حين حديثه عن خصائص المؤرخين، والوجه الثاني في الفصل المعنون بالمغلوب مولع بتقليد الغالب؛ وأما مالك بن نبي فكان يستحضر الوجهين معا في معظم كتاباته، لاعتقاده بارتباطهم العضوي والوظيفي، وخير ما يوضح ذلك كلامه حول ما سماه الأفكار الميتة والأفكار القاتلة كما سنرى لاحقا؛ وقد عبر مالك بن نبي في موقع آخر

عن حال المسلمين بقوله: "المسلمون الآن فقدوا اتصالهم بالنماذج المثالية الخاصة بعالمهم الثقافي الأصيل ولم يتمكنوا بعد من إقامة الاتصال الحقيقي مع عالم أوروبا الثقافي كما فعلت اليابان مثلاً، وأنا اليوم نعاني من هذا الانخفاض المزدوج للقيم الأصلية والمكتسبة" (بن نبي، ص. 117)، وذلك ما خلق التخلف الفكري والثقافي.

5- خصائص المجتمعات المنتكسة ثقافيًا:

في حديثه عن انتقال المجتمعات من المرحلة الطبيعية إلى المرحلة التاريخية، بين بن نبي أهمية الحضارة، من كونها "حماية للوجود الإنساني، لأنها تضع حاجزًا بينه وبين الهمجية" (السحمراني، 2004، ص. 143)، هذه الأخيرة التي تجعله في صراع دائم مع بني جلدته، عوضًا أن يكونوا متعاونين ومتساندين لتحقيق أهداف واحدة، وإذا ما وقع التقهقر الحضاري، شهدنا تحولاً واضحاً في ذلك المجتمع، سواء من الناحية البنائية أو الوظيفية، ولقد تولدت عن الحالة الحضارية المتقهقرة التي تعيشها مجتمعاتنا الإسلامية مواقف اجتماعية وقيم ثقافية وسلوكيات اقتصادية متعددة، يمكن إيجازها فيما يلي:

5-1- الاتجاه نحو الشيئية:

يعني ذلك ببساطة أن الإنسان المسلم يضع الأشياء على رأس السلم القيمي، حتى يكاد يقدسها، لذلك تراه يلجأ إلى اقتناء كل الأشياء التي تمتد إليها يده، دون حاجة ولا ضرورة، ويعتقد بن نبي أن هذه الذهنية "قد تتولد عن حالة الحرمان كما الحال في مجتمعات العالم الثالث، وتتولد كذلك في حالة الغنى، كما في المجتمعات الأوربية" (بن نبي، 2005، ص. 60)، إنها حالة التكديس، وقد تحدث ابن خلدون عن الشيئية دون تسميتها حين تكلم عن جيل الترف والانغماس في الملذات في آخر عمر الدولة، وتعد هذه الظاهرة الآن من مشكلات غياب ما يسمى بثقافة الاستهلاك.

5-2- الاعتناء بالكم وتجاهل أولوية الكيف:

نحن أمام حالة أخرى من حالات الاهتمام بالمظهر دون الجوهر؛ في ابسط صورها أن نسأل الفرد، كم أكلت وليس ماذا أكلت؟ وفي اعقد صورها أن يؤلف كاتبٌ ما كتاباً ويقول فيه كذا صفحة وصفحة؛ متباهياً بعدد الصفحات، دون مضمونها، ومن صور هذه الظاهرة كذلك أن نحتمي بزيادة عدد الناجحين في البكالوريا، ولا ننظر في النوعية. وقد أبرز ابن خلدون بكل وضوح أوصاف الحضارة الحقيقية بابتعادها عن المظاهر المادية بقوله: "علمًا بأن الحضارة الحقيقية ليست في كثرة الزخرفة والنقوش أو التطاول في البنيان، وإنما في إقامة شرع الله وإشاعة العدل والإنصاف" (ابن خلدون، ص. 46). ومعروف أن بن نبي قد شبه المجتمع بالكائن الحي (الإنسان) من

خلال أعمارهم وقال بان المجتمعات تنتقل من عمر الأشياء إلى عمر الأشخاص ثم إلى عمر الأفكار، والتي تهتم بالأشياء والأشخاص دون الأفكار هي مجتمعات غير ناضجة بعد، ولن تستطيع تحقيق الحضارة عند هذه المرحلة من دورتها الحياتية، وانعكاس ذلك حسب ابن خلدون يشبه بما يحدث لأهل الحضرة، من فساد أخلاقهم، حيث أن أهل الحضرة ولكثرة ما يقبلون على ملذات الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، تتلوث أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر (العبد، 2009، ص.58).

3-5- "تقديس" الأشخاص دون النظر إلى أفعالهم:

يعتقد بن نبي أن من أسباب فشل الحركة الإصلاحية في الجزائر وخاصة بعد المؤتمر الإسلامي في 1936 خوضها في مستنقع السياسة وانجرارها وراء فكرة الزعيم، حيث يُعطى لبعض الأشخاص هالة من القداسة، ويُعتقد أنهم أبطال منقذين، هذه الحالة تجعل منهم "أصناماً" تعبد ولا يُسمع إلا لقولهم، فتغيب الأفكار وتنطفيء، لذلك يقول "عندما تغيب الفكرة يبرز الصنم" (بن نبي، 1986، ص. 28)، وأمام هذه الوضعية تذهب الكثير من فوائد التشاور والتناصح وروح المبادرة وغيرها؛ ومن جانبه يظهر رأي ابن خلدون متوافق مع قول بن نبي، حين قوله: "إن المذلة والانقياد كاسران لشهوة العصبية وشدتها، فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها" (ابن خلدون، ص. 153)، حيث تذوب الإرادات الفردية وروح المبادرة أمام السلطة المطلقة لشيخ الجماعة.

4-5- تفشي النزعة الفردانية:

قد اشرنا سابقا بان ابن خلدون جعل من "العصبية" المفهوم الأساسي الذي تقوم عليه نظريته في الاجتماع الإنساني، وفعلا فالمجتمعات العربية كانت تسير وفق نمط العصبية لأنها ظلت وحدها الرابطة الوثيقة التي توحد إرادة الرجال وتجمع قوتهم، غير أن هذه الرابطة لم تكن كافية لتأهيل مجتمع ما ليؤدي رسالته التاريخية كما يقول بن نبي، وقد دعا الإسلام إلى الوحدة والتزام الجماعة، غير أن الواقع الآن غير ذلك، حيث نرى أفراداً تجمعهم قرابة الدم ولا تجمعهم "قرابة اجتماعية" إن صح التعبير، وهذا ما ينعكس سلباً على العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وتماسك المجتمع، يقول بن نبي: "وكل مجتمع أصابت فيه محن الزمن شبكة علاقاته الاجتماعية سيواجه قطعاً سيئات الروح الانفرادية" (بن نبي، 2002، أ، ص. 47)، فيفتكك وترى أفراده كذرات متناثرة لا تربطهم رابطة، وقد أشار ابن خلدون إلى أن الجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفة من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد

الواحد به (ابن خلدون، ص. 182)، وهنا تبدو أن هذه الصفات الثلاثة المذكورة مترابطة، تدفع الواحدة فيه إلى الأخرى.
5-5- التقليد "الأعمى":

وليس الحال هنا قائم على مبادئ عملية التثاقف التي فيها يكون التناقح الثقافي بين مختلف الثقافات، كنتيجة للاتصال الحضاري الذي هو ضرورة لا بد منها، فتأخذ كل ثقافة من الأخرى وتُعطي، إنما الأمر هنا وفي هذه المرحلة التاريخية من حياة المجتمعات الإسلامية قائم على حالة من الاستلاب الثقافي، تجعل من ثقافتنا المهيمن عليها مصبًا للأفكار الميتة القادمة من الثقافة الغربية، تلك الأفكار التي فقد فعاليتها في منبعها الأصلي، وقد ساعدت وسائل الاتصال الحديثة على انتشار هذا الصنف من الأفكار.

6- الشروط الأساسية لإحداث التغيير الايجابي:

يعتقد مالك بن نبي أن الحديث عن إمكانية التغيير الحضاري والانتقال من حالة حضارية متأخرة إلى أخرى مشرقة يستدعي خطابًا ثنائي الاتجاه؛ يتجه إلى القلب تارة وإلى العقل تارة أخرى، لأن الأزمة قد استوطنتهما معاً، وجدير بنا أن نوضح من جديد أن حالة التفاوت الحضاري ليست خاضعة لحتمية طبيعية، أو متعلقة بأسباب فطرية كما توهم أنصار التطورية الاجتماعية، إنما هي متعلقة بأسباب اجتماعية وثقافية، وناجئة عن إرادة نفسية، فقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أن التفاوت في التعليم ليس تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية كما يظنه العامي، فهو يقول " فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاها وحسن تعلمها، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله، وان نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته(يقصد تعلمه) وليس كذلك، فانا نجد من أهل البدو من هو في اعلي رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته" (ابن خلدون، ص. 441)، وفي هذا دليل على قدرة كل البشر على التعلم والتفوق واكتساب الصنائع، وهي دعوة من ابن خلدون لبعث الهمم وإيقاظ الإرادات من اجل إحداث التغيير الحضاري وتأسيس الدول، لان الحضارة كما يصف حسين مؤنس "ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصوداً، سواء أكانت الثمرة مادية أو معنوية" (مؤنس، 1998، ص. 15)، فالبناء الحضاري هو محصلة مجهود إنساني فكري وعضلي في الوقت ذاته.

وفي حديثه عن التغيير يعطي ابن خلدون عامل الزمن أهمية قصوى، فالأمر عنده مُتعلق بتعاقب الأجيال، وذهاب الجيل الذي تطبع على أخلاق الذل والكسل، ومجيء جيل آخر تنبعث منه روح التحدي والإقدام، لم يتذوق طعم الترف وعدوبة كماليات العيش.

وأما بالنسبة لمالك بن نبي ورغم سوداوية الأوضاع وقساوة الأحوال في عصره، حيث انقلب سلم القيم وضعفت الهمم، وفقدت الروح الحضارية، والبعد الروحي ذو أهمية بالغة عنده، حيث يرى أن "الروح وحدها تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم" (بن نبي، 2002 ب، ص. 31)، فإنه يترك الأمل قائماً في إعادة النهوض من جديد بعد توفير الأسباب الموضوعية، وقبل ذلك علينا أن ندرك مواقع الضعف، فالمرض باعتقاده قبل أن يكون اجتماعي فهو نفسي أولاً، يكمن في علاقة الفكرة بالشيء في أعماق الضمير (بن نبي، 2005، ص. 51)، وإعادة بناء هذه العلاقة هو السبيل للبناء الحضاري.

وإذا ما نظرنا إلى المنظومة الفكرية لبن نبي، نجده من الذين يتبنون التحليل السوسيولوجي النفسي الذي لا يرى جدوى في فصل الاجتماعي عن النفسي، بل انه يعطي الأسبقية للبعد النفسي حين تحليله لأهم ظواهر الاجتماع الإنساني ألا وهي البناء الحضاري، فحسبه، لا يمكن الحديث عن النمو الاقتصادي ولا التحسن الاجتماعي والرقى، دون التطرق إلى إحداث التغيير في النفس البشرية، وحين تطرقه لوضع المجتمعات الإسلامية فإنه يبني تحليله منطلقاً من الآية: 11 من سورة الرعد "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، فإذا تغيرت نظرتنا للواقع نستطيع أن نغير هذا الواقع، فالواقع يُفترض أن يُبنى من خلال أفكار الأفراد وأفعالهم واختياراتهم، وليس مفروضاً عليهم كما يعتقد أصحاب الحتمية الاجتماعية.

7- معوقات التغيير الاجتماعي الثقافي:

أكدت الكثير من الأبحاث في العصر الحديث -مثل دراسة ماكس فيبر حول الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية- أن التقهقر الحضاري يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمجموع التصورات والممارسات السلبية التي تنتشر بين الأفراد في فترة تاريخية معينة، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته، وهو يرجعه إلى انتقال وتحول طبائع البداوة إلى طبائع الحضارة، "فأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية... وتسقط العصبية بالجملة (ابن خلدون، ص. 182)، فيتجه أفراد هذا الجيل إلى حياة الترف والإسراف، ويتعدون عن روح العصبية، وشأن العصبية عنده في التفسير الموضوعي للمجتمعات الإسلامية معروف، حيث يعتمد عليها في تفسير حوادث التاريخ الإسلامي كله، وهي عنده مفتاح حل جل مشاكل تلك المجتمعات، حيث تعتبر الحبل المتين الذي يربط بين الأفراد ويجعل منهم كيان اجتماعي متماسك. فذهاب العصبية وتبدل طبائع الناس وانغماسهم في الترف وحصول المذلة كلها من عوائق حصول الملك حسب ابن خلدون، وهي أسباب فيها البعد النفسي والاجتماعي والاقتصادي، إلى جانب العامل الجغرافي الذي يعتبر عنده من الأسباب المؤثرة في قدرة الأمم على بناء الحضارة

وتطويرها كما ذكرنا سابقًا، واعتقد أنه قد بالغ في هذا المنحى، فان صدق الأمر في عصره على بعض المجتمعات، فالآن قد أصبح الإنسان أكثر قدرة على التكيف مع الطبيعة والتأثير فيها، حتى أصبح يخشى على الطبيعة من فعل الإنسان، وليس العكس.

في حين أن حديث مالك بن نبي حول عوائق نجاح المشروع الحضاري قد جاء في ظل معطيات الظاهرة الاستعمارية، المرتبطة بمجموعة من الممارسات العسكرية والسياسية والقانونية والاجتماعية الثقافية، فالاستعمار الفرنسي قد حاول فعلاً نشر الثقافة في الجزائر من خلال ما أنشأه من مدارس، ولكن كان محتواها التعليمي والقيمي والأخلاقي بعيداً عن الواقع الثقافي الخاص بهذا المجتمع، وانه كان يهدف أساساً إلى خلق شخصية منزوعة الجذور عارية الأغصان، تكون تابعة للأوروبي.

إذن قد ذهب مالك بن نبي إلى ابعاد من المظاهر الخادعة التي هي في الأصل نتائج وليست أسباب، فالعائق الحقيقي الذي يسيطر على مرحلة ما بعد التحضر هو حالة نفسية وثقافية، نتجت عنها أوضاعاً اقتصادية، وسياسية، واجتماعية معينة؛ تتجلى هذه الحالة فيما أطلق عليه "القابلية للاستعمار"، التي يفسرها بقوله: "فكون المسلم غير حائز على جميع الوسائل التي يريدتها لتنمية شخصيته، وتحقيق مواهبه، ذلك هو الاستعمار، وأما أن لا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداماً مؤثراً، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع مستوى حياته، حتى بالوسائل العارضة، وأن لا يستخدم وقته في هذا السبيل فيستسلم -على العكس- للحظة إفقاره وتحويله كما مهملاً، يكفل نجاح الإدارة الاستعمارية، فتلك هي قابلية الاستعمار" (بن نبي، 2002 ب، ص. 96)، بمعنى، تحويل الأفراد إلى أدوات لتنفيذ المشاريع الاستعمارية، دون أن تكون لهم أدنى معرفة بأهدافها وأغراضها البعيدة؛ فالقابلية للاستعمار تتجلى في مجموعات من الحواجز المعنوية التي تثبط العزائم، تبدأ بعدم القدرة على العمل، مروراً بعدم القدرة على استخدام الوقت، لتصل حتى إلى عدم القدرة على التفكير؛ وهذه الأعراض المرضية كلها منتشرة في الوقت الحالي في معظم المجتمعات الإسلامية، وفي حدودها القصوى، خاصة بعد الانتشار الكبير لوسائل الاتصال الحديث.

8- آليات التغيير الحضاري:

8-1- التأسيس المعرفي للتغيير الحضاري:

كانت دعوة ابن خلدون لتأسيس علم جديد يدرس أحوال العمران البشري وعوارضه نتيجة لوجود دواعي عديدة، أهمها الحالة الحضارية التي كانت تعيشها المجتمعات الإسلامية، فرأى ضرورة لوجوده، وقد سار بن نبي على نهجه حين دعا إلى تأسيس علم اجتماع تطبيقي يكون الموجه

الأساسي لعملية التغيير الحضاري، فيعطيها المرجعية والمنهجية ويرشدها إلى الأدوات والوسائل، وهذا العلم يجب ألا ينفصل عن جهاز التخطيط لدولة الاستقلال، ويقوم على مبدئين هما (بن نبي، 2002 ب، صفحة 98):

1- أن نتبع سياسة تتفق ووسائلنا المتاحة

2- أن نوجد بأنفسنا وسائل سياستنا.

حيث المبدأ الأول يسمح لنا بالتعامل مع الوسائل الأولية المتاحة أمامنا، وهي الإنسان والتراب والوقت، وتجنب الارتباط بالغير وحصول التبعية إليهم، فيصفي المجتمع وجدانه من القابلية للاستعمار، ويُمكننا المبدأ الثاني من تحويل هذه الوسائل الأولية إلى وسائل أكمل تكون نتيجتها إلغاء الاستعمار وتصفيته، ثم إننا نجد بن نبي قد أَلح على مبدأ العلم قبل العمل، فما فشل الإصلاح سابقا باعتقاده إلا لأنه لم يكن قائما على نظرية في الثقافة، تمكن من تغيير نفسية الإنسان المسلم، وحرى بنا الآن أن نتساءل عن صاحب هذا الدور، إنه النخبة المثقفة دون شك، هي التي يجب أن تمارس هذا التأسيس المعرفي حيث أن "المثقف باعتباره مثقفاً رسالياً يقع عليه واجب توجيه المجتمع بناءً على معاينة الواقع المعاش واستشراف المستقبل القريب والبعيد، ويتعين عليه تشخيص الأمراض النفسية والاجتماعية، والبحث عن جذورها وأطوارها وتقديم ما يتناسب من علاج معها" (مولاي، 2018، ص. 1).

2-8- تفعيل دور النخبة:

ولما كان ابن خلدون يضع اللبنة الأولى لعلم الاجتماع توقف مع علم التاريخ، وما استوقفه إلا انحراف المؤرخين وضعفهم في تقديم المعارف الموضوعية والواقعية بماضي الأمم والمجتمعات، والماضي عنده عبر وتجارب يبني من خلال التمعن فيها الحاضر ويُخطط للمستقبل، فقدم نقداً لاذعاً ولكنه بناءً للمؤرخين السابقين ولمن جاء بعدهم، حيث كتب يقول في وصف صنف من نخبة ذلك الزمن: "ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد، وبليد الطبع أو متبلد ينسج على ذلك المنوال... ويحتذي منه بالمثل، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال" (ابن خلدون، ص. 18)، ثم دعاهم إلى إتباع طرائق ومناهج أكثر موضوعية تعطي كتاباتهم الدقة والحيادية، وتسمح بفهم الواقع الاجتماعي وظواهره الاعتيادية.

وأما موضوع النخبة عند بن نبي فذو أهمية كبرى، لأنه يرتبط بالأفكار وهي جوهر المشكلة الحضارية، فقد كتب حول مفكري المجتمعات الإسلامية وخاصة المقلدين منهم، "فان هؤلاء المقلدين المسترسلين في تقليد غيرهم ليس لديهم فكرة عن ابتكار الغير (كيف؟)، ولا عن دوافع هذا الابتكار (لماذا؟)، ولا عن تكاليفه، فضلا عن أنهم عاجزين عن أن يبتكروا بحسب دوافعهم

الخاصة" (بن نبي، 2005، ص.8)؛ فإذا كان تقليد العامي يكون للوسائل والأشياء، فإن تقليد العالم يكون في الأفكار وذلك اخطر، خاصة إذا وقع هؤلاء في فخ الفاعلية، فينهبوا بفعالية الأفكار دون النظر في صدقها، ودون التمعن في أبعادها الزمنية والمكانية، فتراهم يتناقضونها دون إخضاعها لعملية التكيف مع الواقع الثقافي الجديد، لان كل فكرة هي وليدة لواقع سوسيو-ثقافي خاص تتكيف مع معطياته وخصوصياته.

8-3- بناء مرجعيته واضحة وقوية:

جاء الفصل الخامس من الباب الثالث من الكتاب الأول من مقدمة ابن خلدون تحت عنوان: "في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها"؛ حيث ارجع ابن خلدون السبب في ذلك إلى الوازع الديني الأخلاقي، الذي يذهب بعض الصفات المؤدية للفرقة مثل التحاسد، التنافس، الأنانية وغيرها، وكلها تنافي الروح الجماعية التي هي قاعدة للقوة والغلبة، وتحقيق الوجهة الواحدة، وحصول الاجتماع المؤسس للدولة، وقد دعا ابن خلدون إلى إرجاع الأسبقية للتشريع قبل اجتهادات العقل البشري الذي قد يخطأ وقد يصيب، فقال: "فإذا هدانا الشرع إلى مدرك، فينبغي أن نقدمه على مداركنا، ونثق به دونها، ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه" (العبد، 2009، ص. 45). وعند مالك بن نبي فان من أسباب فشل بعض المحاولات الإصلاحية السابقة عدم وجود مرجعية واضحة، فلم يتجه كل طرف إلى مصدر إلهامه الحق، فالإصلاحيون لم يتجهوا إلى أصول الإسلام الصافية، كما أن "الحداثيين" لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي الحقيقية.

إذن فقد اتفقا على انه لا يمكن تحقيق التغيير الحضاري دون الاستناد إلى مرجعية دينية وأخلاقية واضحة لأنها أساس خلق الظاهرة الاجتماعية، حيث يقول بن نبي في كتابه شروط النهضة: "إن الكلمة لمن روح القدس، إنها تساهم إلى حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية، فهي ذات وقع في ضمير الفرد شديد، إذ تدخل إلى سويداء قلبه، فتستقر معانيها فيه لتحوّله إلى إنسان ذو مبدأ ورسالة" (بن نبي، 1986، ص.22)، وهنا يتبين أن المفكرين قد تعمقا في جوهر المشكلة الحضارية، رغبة في علاجها من أصلها.

8-4- تحريك الطاقة الحيوية وإعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية:

تبدأ نقطة التغيير عند مالك بن نبي من اللحظة التي نستطيع فيها التحكم في الطاقة الحيوية، وبتحريك تلك الطاقة تتمكن من توظيف المصادر الأولية لأي حضارة إنسانية (الإنسان، التراب، الوقت)، وهي وسائل متاحة لجميع المجتمعات، وجب الانطلاق منها، والطاقة الحيوية في حركيتها التاريخية تشبه تماما حركية العصبية عند ابن خلدون، رسمها مالك بن نبي في منحى ذو

ثلاث مراحل، يبدأ من نقطة الصفر (نقطة بزوغ الفكرة الحضارية) ليأخذ منحى تصاعدي نتيجة لقوة الروح-العامل الضروري لصناعة الحضارة- حيث الروح هي التي تدعم العقل الذي هو وسيلة العلم الأولى، هذه المرحلة تبدأ مع بداية البعثة المحمدية إلى غاية سنة 37 هجرية (معركة صفين)، ثم تأتي المرحلة الثانية حيث يحدث استقرار في الطاقة الحيوية، وهي مرحلة يسيطر فيها العقل، ثم بعد ذلك يبدأ المنحنى في التناقص والاتجاه نحو اللحظة صفر من جديد، فيما يبدأ توجيه الواقع الاجتماعي من قبل الغرائز ويبدأ إشعاع الروح والعقل في الانطفاء (طور زوال الدولة عند ابن خلدون).

والدورة السابقة تمثل كذلك دورة "تكييف الأفكار"، حيث يكون التكيف في المرحلة الأولى في الذروة ثم يبدأ في التناقص تدريجياً عندما تستبدل الأفكار الأصيلة بأفكار أخرى مكتسبة، حيث أن قدرة أي فكرة على التكيف تختلف من مجتمع لآخر، وفي نفس المجتمع من مرحلة تاريخية لأخرى. وما دامت الحضارة عند مالك بن نبي هي إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع ما بعد التحضر الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ، فكيف يمكننا إنتاج هذه الفكرة التي تجعلنا نعود إلى مسار التاريخ؟، وما طبيعتها؟، وكيف نحولها إلى واقع اجتماعي نجسد فيه جوهر الحضارة؟ وما علاقة هذه الفكرة بعالم الأشخاص وعالم الأشياء؟

إن عالم الأفكار عند مالك بن نبي ليس مستقلاً يسبح في فضاء خاص، يسهل التحكم فيه وتوجيهه، إنما هو في حالة من الصراع مع عالمين آخرين، هما عالم الأشخاص وعالم الأشياء، كل عالم منهم يريد أن يفرض منطقته الخاص، وإن اختلاف موازين القوى يؤدي إلى خلل اجتماعي أساسي داخل المجتمع، وصمام الأمان لتوازن هذه العلاقة هو شبكة العلاقات الاجتماعية، حيث تكمن محورية شبكة العلاقات الاجتماعية في أنها تشكل القاعدة التي تمكن مصادر الفعل الإنساني الثلاثة من العمل والتأثير في صناعة التاريخ.

وإن أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير أحواله مقترن أو مشروط بمدى اكتمال وقوة هذه الشبكة من العلاقات، "شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده" (بن نبي، 1985، ص. 25)، وإذا عدنا إلى التاريخ الإسلامي نجد أن أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم لحظة دخوله المدينة المنورة بعد بناء المسجد الذي يعتبر من أهم المؤسسات الاجتماعية، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهذا ما يسر للمجتمع الإسلامي أن يضع قطار الحضارة على سكة التاريخ بكل قوة وعزم وإدارة وحسن تدبير.

- خاتمة:

وفي ختام هذا المقال المتواضع -الذي حاولنا من خلاله المقاربة بين تصورين متباعدين زمانيا، ومتقاربين نظريا ومنهجيا- تبين لنا أن كل من المفكرين قد سعى إلى تجاوز منظومة معرفية ميزها الركود والتقليد واستيراد الأفكار، إلى محاولة بعث منظومة أخرى قائمة على التجديد الفكري، ومستندة إلى مبادئ نظرية أصيلة وقواعد منهجية مضبوطة، فالواجب إذن التنويه بهذه المحاولات وغيرها، وإعادة دراستها بكل روية، وروح نقدية.

وقد حاول كل من ابن خلدون ومالك بن نبي وضع قطيعة معرفية مع مختلف التصورات المغلوطة حول الواقع الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية، سواء المبنية على قواعد تجريدية مجردة عن هذا الواقع، أو الموروثة عن طرق تفكير تقليدية أو خرافية، أو حتى المستنبطة من فلسفات وضعية لا تراعي الخصوصيات الثقافية والاجتماعية، وقد اقتنع المفكران أن أي محاولة لإصلاح هذا الواقع متجاوزة الإصلاح المعرفي هي محاولة فاشلة من الأساس. لان معرفة الداء هي شرطا لازما لوصف الدواء.

وليس الإصلاح عند بن نبي أن نضع قطار المجتمع في مسلك قد تم سلكه من احد المجتمعات نتوهم فيه نجاحنا كما قد نجحوا فيه، أو اعتقدنا نجاحهم، إنما التغيير الحضاري يعني أننا نفتح دربا جديدا خاصا، متكيفا مع ما نملك من موروث ثقافي وعقائدي وعلائقي (شبكة علاقات اجتماعية ذات خصوصية)، تكون الانطلاقة في هذا الدرب المتجدد بعد أن نجيب على أهم سؤالين: لماذا نريد التغيير؟ فنبحث عن الأسباب التي تدفعنا للتغيير، والسؤال الثاني: كيف يكون التغيير؟ وهنا نستوضح الأدوات والوسائل التي يتم بواسطتها التغيير.

وقد اتفق المفكران على أن يراعي كل تغيير حضاري بالضرورة الإصلاح الديني، بالرجوع إلى منابع الإسلام الصافية، وأفكاره الصادقة والفعالة في عصر البعثة والخلافة الإسلامية الراشدة؛ والعرب كما قال ابن خلدون لن يحصل لهم الملك إلا بالفكرة الدينية، بما تحمله من بعد غيبي أخروي، وبعد اجتماعي دنيوي.

- قائمة المراجع:

- ابن خلدون عبد الرحمان. (2001). المقدمة. بيروت: دار الفكر.
- الجابري محمد عابد. (1994). العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامية. الطبعة 6. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- السحمراني أسعد. (2004). مالك بن نبي مفكرًا مصلحًا. الطبعة 2. بيروت، لبنان: دار النفائس.
- العبدية محمد. (2009). مختصرات من مقدمة ابن خلدون. القاهرة. مصر: مركز الرسالة للدراسات والبحوث.
- بن نبي مالك. (1985). ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية. ترجمة: شاهين عبد الصابور. دمشق. دار الفكر.
- بن نبي مالك. (1986). شروط النهضة. ترجمة شاهين عبد الصابور. دمشق، سوريا: دار الفكر.
- بن نبي مالك. (2002 أ). بين الرشاد والتهيه. بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر.
- بن نبي مالك. (2002 ب). وجهة العالم الإسلامي. دمشق، بيروت: دار الفكر، دار الفكر المعاصر.
- بن نبي مالك. (2005). مشكلة الأفكار. ترجمة محمد عبد العظيم علي. الجزائر: منشورات الوكالة الوطنية للنشر والاشهار.
- تولرا فليب لآبورت، وجون بيير فارنيه. (2004). اثنولوجيا انثروبولوجيا. الطبعة 01. ترجمة: مصباح الصمد. بيروت. لبنان: المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع.
- كوش دونيس. (2007). مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. الطبعة 1. ترجمة السعيداني منير. بيروت. لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- مولاي محمد. (2018, 09 12). مسألة التغيير على ضوء المفارقة بين الواقع والمنظور. تاريخ الاسترداد 2018, 09 12، من <https://www.bennabi.net>
- مؤنس حسين. (1998). الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها. الطبعة 01. بيروت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.